مظاهر الفساد وآثاره في ضوء القرآن الكريم

"دراسة موضوعية"

The manifestations of corruption and its effects in Light Koran

عبد السلام حمدان اللوح

كلية أصول الدين – الجامعة الإسلامية – غزة

ضيائي نعمان السوسي

الجامعة الإسلامية – غزة

تاريخ الاستلام 2007/10/24 تاريخ القبول 2008/1/10

ABSTRACT: *This study explanatory objective about manifestations of corruption and its effects in the light of the Koran to show that for the universe and life is a divine convention based on Slahama If solve corruption in the country and the people are its multiple forms, there is no doubt that upset the universe and life, which abound manifestations of corruption and its negative effects, whether those appearances on the individuals themselves, or the entire nation, or universe, and transmitted by the disaster and destruction and the disruption of its rules, each as a result of corruption of the people, to taste some God who worked for the life after death, no way out of it except to walk towards goodness and repayment and Cress.*

ملخص البحث:

هذه دراسة تفسيرية موضوعية حول مظاهر الفساد وآثاره في ضوء القرآن الكريم، تناولنا فيها نقاطاً دللت على وجود الفساد وتَرَتُبِ الآثار المدمرة على وجوده، ليظهر أن للكون والحياة سنة إلهية قائمة على صلاحهما، فإذا حل الفساد في البلاد والعباد بصوره وأشكاله المتعددة، فلا شك أنه سيختل نظام الكون والحياة، وتكثر فيه مظاهر الفساد وآثاره السلبية، سواء أكانت تلك المظاهر متعلقة بالأفراد أنفسهم، كانحراف سلوكهم أو ندمهم عند الموت أو سوء مصيرهم يوم القيامة، أم تعلقت بالأمة كلها، كسفك الدماء وقطع الأرحام وانتشار الرذيلة وفقد الأمن ثم فنائها واستئصالها، أم تعلقت بالكون وما يحل به من كوارث ودمار واختلال لنظامه، كل ذلك نتيجة لفساد الناس، ليذيقهم الله بعض

الذي عملوا في الحياة وبعد الممات، ولا سبيل للخلاص من ذلك إلا بالسير في سبيل الخير والسداد والرشاد.

مقدمـــــة:

الحمد لله الذي جعل للكون والحياة نظاماً قائماً على الحق والعدل بعيداً عن الظلـم والفساد، والصلاة والسلام على الداعي للخير والفضيلة، والذي حذر من الشر والرذيلـة، وعلى آله وصحبه والتابعين وبعد:

فقد جعل الله تبارك وتعالى للكون نظاماً متناسقاً، ينسجم كل جزء من أجزائه فـي أداء الدور المنوط به مع بقية الأجزاء، في نظام عجيب غريب لا يكاد جزء منهـا يخـل بدوره، إذ إن أي فساد أو خلل في جزءٍ منه ربما يحدث اضطراباً لنظام الكون برمته[1].

والإنسان جزء من هذا الكون، وقد جعل الله له نظاماً ومنهجاً يَحتكم إليه في كل شأن من شؤونه، وينسجم مع نظام الكون من حوله، فلو أخل الإنسان بهذا النظام والمنهاج لأفـسد حياته وتحولت إلى جحيم لا يطاق، والنظام الذي جعله الله للإنسان هـو ديـن الله الـذي ارتضاه للبشرية جمعاء، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...**﴾[2]، لذا فإن الخروج عن منهج الإسلام فيه فساد الأرض وشقاء الإنسان: قال تعالى: ﴿... **فَإِمَّا يَـأْتِيَنَّكُمْ مِنِّـي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[3]، وللفساد مظاهر وآثارٌ وخيمة على المفـسدين أنفـسهم وعلى المجتمع وعلى الكون من حولهم، تتمثل هذه المظاهر في انحراف سـلوك النـاس وفطرتهم وعبوديتهم لله تعالى، وبالتالي يظهر الصد عن سبيل الله بكافة أشكاله وصـوره، وتكثر مظاهر الفساد وآثاره وما يترتب عليه من ندم في العاجل والآجل تجعـل الإنـسان يتمنى العودة للدنيا ليعمل صالحاً، ولن ينفع الندم بعد فوات الأوان، إنها الخسارة الحقيقية، إذ يخسر الإنسان نفسه فيصير إلى جهنم خالداً فيها مطروداً من رحمة ربه، وقـد خـسر الدنيا قبل ذلك حيث فقدُ الأمن، وسَفك الدماء، وقَطع الرحم، وانتـشار الرذيلـة وعمـوم القحط، ووقعت الكوارث والدمار، واختل نظام الكون، كل ذلك بسبب الفساد الذي بـرزت

---

(1) انظر: كتاب توحيد الخالق ــ عبد المجيد الزنداني ــ م1ج2ص33

(2) آل عمران: 19

(3) طه: 124

مظاهره وآثاره، مما احتاج إلى دراسة لبيان مدى هذه الخطورة على الأفراد والأمة والكون كله.

وقد سبق أن وفقنا الله فأنجزنا دراسة سابقة بعنوان " الفساد وأسبابه" دراسة قرآنية موضوعية، تم فيها تعريف الفساد لغة واصطلاحاً، مع استعراض ورود لفظة الفساد في السياق القرآني بين الآيات المكية والمدنية، وحسبنا أن نذكر تعريف الفساد لأهميته في هذه الدراسة .

وتحقيقاً لهدف البحث وغايته فقد جعلناه في مقدمة وتمهيدٍ وثلاثة مباحث، وخاتمة، وذلك كما يلي:

المقدمة: وفيها أهمية البحث وغايته، ثم هيكلية الدراسة.

التمهيد: وفيه تعريف الفساد لغةً واصطلاحاً، وبيان المراد بالمظاهر.

المبحث الأول : **مظاهر الفساد وآثاره على الأفراد**

وفيه ثلاث مسائل :

المسألة الأولي: **انحراف السلوك**

المسألة الثانية: **الندم عند الموت**

المسألة الثالثة: **سوء المصير يوم القيامة**

المبحث الثاني: **مظاهر الفساد وآثاره على الجماعة**

وفيه خمس مسائل:

المسألة الأولي: **سفك الدماء**

المسألة الثانية: **قطع الأرحام**

المسألة الثالثة: **انتشار الرذيلة**

المسألة الرابعة: **فقد الأمن**

المسألة الخامسة: **الفناء والاستئصال**

المبحث الثالث: **آثار الفساد الواقعة على الكون.**

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولي: **القحط والجفاف**

المسألة الثانية: **الكوارث والدمار**

المسألة الثالثة: **اختلال النظام الكوني**

الخاتمة: **وفيها خلاصة البحث وأهم نتائجه.**

والله ولي التوفيق

الباحثان

التمهيد

أولاً: تعريف الفساد لغة و اصطلاحاً

1- تعريف الفساد لغةً

الفساد: "الفاء والسين والدال كلمة واحدة، فسد الشيء يفسد فساداً وفسوداً وهو فاسد وفسيد"(4)، ويقال: "قوم فَسْدَى كما قالوا ساقِطٌ وسَقْطَى، قال سيبويه جمعوه جمع هَلْكَى لتقاربهما في المعنى...، وتَفَاسَدَ القومُ تدابَرُوا وقطعوا الأَرحام...، والمَفْسَدَةُ خلاف المصْلَحة...، والاستفسادُ خلاف الاستصلاح...، وقالوا هذا الأَمر مَفْسَدَةٌ لكذا أَي فيه فساد وفَسَّدَ الشيءَ إِذا أَبَارَه(5)"(6)

وقيل: "فَسَدَ كنَصَرَ ...، ضِدُّ صَلُحَ فهو فاسِدٌ، وفَسِيدٌ من فَسْدَى ولم يُسْمَعْ: انْفَسَدَ"(7)، "وقد اخْتَلَفت عباراتُهم في معناه فقيل: فَسَد الشيءُ: بَطَلَ واضْمَحَلّ ويكون بمعنَى تَغَيَّر"(8)

وقيل الفساد: "بمعنى الجدب، قال عز وجل: ﴿ **ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ...**﴾(9)، قيل: الفساد هنا الجَدْب في البرّ والقحط في البحر أَي في المُدُن التي على الأَنهار(10)

وقيل: الفساد خروج الشيء عن الاعتدال قليلا كان الخروج عنه أو كثيراً ويضاده الصلاح ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة (11)،

---

(4) معجم مقاييس اللغة ــ ابن فارس ــ ص748

(5) أبار الشيء إذا أهلكه أو أفسده. انظر: لسان العرب ــ ابن منظور ــ ج4ص86

(6) لسان العرب ــ ابن منظور ــ مج3ص335 -336

(7) القاموس المحيط ــ الفيروزأبادي ــ مج1ص335، أنظر: تاج العروس جواهر القاموس مج2ص452

(8) تاج العروس جواهر القاموس ــ مج2 ص452

(9) سورة الروم: 41

(10) انظر: معاني القرآن ــ الزجاج ــ ج4 ص188

2- الفساد اصطلاحاً

قال الطبري: "الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية"[12]

قال أبو حيان: " الفساد: التغير عن حالة الاعتدال والاستقامة"[13]

وقال البيضاوي: "والفساد: خروج الشيء عن الاعتدال "[14].

وقال المنصوري[15]: "الفساد يتناول جميع أنواع الإثم، فمن عمل بغير أمر الله فهو مفسد"[16].

ونرى استئناساً بالمعنى اللغوي والتعريفات الاصطلاحية أعلاه أن نخلص إلى تعريف اصطلاحي للفساد وهو:

"الخروج عن حالة الصلاح والاعتدال التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية"

ثانياً: المراد بالمظاهر

أصلها من "ظهر" الشيء إذا تَبَيَّن، وأظهر الشيء إذا بَيَّنَه، والظهر ضد البطن، والظاهر ضد الباطن[17].

قال الراغب الأصبهاني: وظهر الشيء: أصله أن يحصل الشيء على ظهر الأرض فلا يخفى، ثم صار مستعملاً في كل بارز مُبصَر بالبصر والبصيرة، قال تعالى: ﴿.... أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾[18]، وقال أيضاً: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[19] أي كثر وشاع[20].

---

(11) انظر: مفردات ألفاظ القرآن ــ الراغب الأصفهاني: ص636، انظر: المعجم الوجيز لألفاظ القرآن الكريم ــ نبيل هارون ــ ص156

(12) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ــ الطبري ــ ج1ص97

(13) البحر المحيط ــ ابو حيان الاندلسي ــ مج1 ص191

(14) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ــ البيضاوي ــ مج1 ص28

(15) ولد في مدينة حصن بالمنصور عام 107هــ ، واسمه: مصطفى بن ميمش بن الحسين، صاحب تفسير مقتطف من عيون التفاسير توفي سنة 1390هــ ودفن في اسطنبول. انظر: المقتطف من عيون التفاسير ــ مصطفى الحصن المنصوري ــ مقدمة الكتاب (بيد إبراهيم طانيرــ أحد أصدقاء المؤلف).

(16) المقتطف من عيون التفاسير ــ مصطفى الحصن المنصوري ــ ص39

(17) مختار الصحاح ــ محمد بن أبي بكر الرازي ــ ص406

(18) غافر: 26

(19) الروم: 41

ومن خلال المعنى اللغوي السابق نستطيع القول بأن المراد بالمظاهر: "هي الأمور الظاهرة البارزة الدالة على مدلولها، ولا تخفى على ذي بصر أو بصيرة"

المبحث الأول

مظاهر الفساد وآثاره على الأفراد

إن للفساد مظاهره السلبية المنعكسة على الأفراد الذين لحق بهم الفساد، وتعايشوا معه على اعتبار أنه أمر طبيعي فهؤلاء الأفراد سينحرف سلوكهم، ويندمون عند الموت، ويسوء مصيرهم يوم القيامة، وسوف نعرض صوراً ونماذج لهذه المظاهر والآثار في ضوء القرآن الكريم، لبيان خطرها وللحذر منها، وذلك فيما يلي:

المسألة الأولى: انحراف السلوك

والانحراف في اللغة: الميل عن الشيء[21]، والسُّلوك: مصدر سَلَكَ وهي من سلك طريقا وسَلَكَ المكانَ يَسْلُكُه[22] .

ونقصد بانحراف السلوك لدى المفسدين: ميل المفسد في سلوكه عن منهج الإسلام كما بينه القرآن، وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تصف انحراف سلوك المفسدين.

ويمكن تصنيف أوجه انحراف سلوكهم على النحو التالي:

1. الاعتداد بالنفس وادعاء الصلاح

الأصل في الإنسان ألا يزكي نفسه، قال تعالى: ﴿...فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[23]، ويُحْسِنَ الظن بالآخرين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ...﴾[24]، لكن المفسدين قد انحرفوا بسلوكهم عن منهج الله فوصفوا أنفسهم بالصلاح وهو منهم بريء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ* أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[25]، تأتي هذه الآية

[20] انظر: المفردات في غريب القرآن ــ الراغب الأصبهاني ــ ص451

[21] انظر: لسان العرب ــ ابن منظور ــ ج9ص41

[22] انظر: لسان العرب ــ ابن منظور ــ ج10ص442

[23] النجم: 32

[24] الحجرات: 12

[25] البقرة: 11ــ 12

الكريمة في سياق الحديث عن المنافقين، الذين إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض لم يكتفوا بنفي الفساد عن أنفسهم، بل تبجحوا وادعوا الصلاح فقالوا: إنما نحن مصلحون، إنهم يقولون ذلك لأن الموازين مختلة لديهم، ومتى اختل ميزان القيم لدى الإنسان، اختلت لديه سائر الموازين، فيتعذر عليه أن يشعر بفساد نفسه، لأن موازين الخير والشر والصلاح والفساد في نفسه تتأرجح مع أهوائه الذاتية[26].

حقاً إنه أثر الفساد في النفس البشرية، الذي يعمي البصيرة فيعتد المفسد بنفسه، فلا يرى الحق إلا في جانبه، ويسفه غيره، فلا يقبل نصحاً ولا يستجيب إلا لهوىً في نفسه، فينحرف بسلوكه عن طريق الصلاح.

2. انحراف فطرة المفسد جنسياً

قال تعالى: ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ* أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ*قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ**﴾[27]، في هذه الآيات الكريمة ينكر لوط عليه السلام على قومه انحراف فطرتهم من الناحية الجنسية، إذ كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وكانوا أول من ابتدع هذه الطريقة القبيحة، وقد أنذرهم عذاب الله فسخروا منه، فلما تمادوا في انحرافهم طلب نبي الله لوطاً عليه السلام معونة اللهَ ونصرته على هذه الأمة التي فسدت فطرتها[28].

والمتتبع لقصة قوم لوط عليه السلام في القرآن الكريم، يرى أن انحراف سلوك القوم وشذوذهم عن فطرة الله التي فطر الناس عليها هو أساس الفساد، قال تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ...**﴾[29]، وقد أخلص لوط النصح والإرشاد لقومه فقال: ﴿**... يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ...**﴾[30] لكن الأمة التي فسدت فطرتها،

---

(26) انظر: في ظلال القرآن – سيد قطب – ج1ص44، (المفسدون في الأرض – جمال بواطنة) انظر: مجلة الإسراء – عدد 52 – إبريل /2004– ص15 .

(27) العنكبوت: 28 – 30

(28) انظر تفسير ابن كثير – ج6ص291

(29) الأعراف: 81

(30) هود: 78

وانحرف خلقها وسلوكها ما كان جوابها إلا أن قالت: ﴿... لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[31]، فهل هناك أبلغ من هذا الرد ليدلل على انحراف القوم عن فطرة الله.

إنه الفساد الذي هيمن على نفوس القوم فأصبحت لا تميز بين خير وشر، ولا بين فضيلة ورذيلة.

3. انحراف المفسد عن العقيدة الصحيحة

إن دين الله يقتضي أن يعظم الإنسان ربه، لكن المفسدين لا يراعون أدب العبودية لله، قال تعالى ﴿**وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾[32]، يأتي هذا القول من اليهود شاهداً على عدم تأدبهم مع الله عز وجل، ومدللاً على فساد معتقداتهم وفهمهم لصفاته سبحانه وتعالى، وخَتْمُ الآية بقوله: ﴿...**وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾، يبين أن القوم ما تجرؤوا على هذا التقول على الله، لولا فساد عقيدتهم.
ففساد عقيدتهم سبب انحرافهم وسوء أدبهم مع الله عز وجل.

4. الإسراف في القتل واستباحة الحرمات

قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[33]، وهذا انحراف خطير في سلوك الفرد، ففرعون الطاغية علا في الأرض وتجبر، وجعل أهل مملكته شيعاً، كل شيعة في شأن من شئونه، وسام بني إسرائيل أشد العذاب والاضطهاد، لأنهم كانوا يعتقدون غير عقيدته، إذ كانت لهم بقية من دين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب عليهما السلام، فلما أحس الطاغية أن هناك خطراً على عرشه وملكه من وجودهم في مصر، ابتكر طريقة خبيثة للقضاء عليهم، لا لشيء سوى أنهم لا يعبدونه ولا يعتقدون بألوهيته،

(31) هود: 79
(32) المائدة: 64
(33) القصص: 4.

فسخرهم في أشق وأخطر الأعمال، واستذلهم وعذبهم بشتى أنواع العذاب، وبعد ذلك كله ذبح الذكور من أطفالهم فور ولادتهم، دون ذنب أو معصية(34)، فأي انحراف هذا؟ وأي نفس فاسدة شريرة هذه التي تطال جريمتها أطفالاً ما عرفوا معنى الحياة؟ وما تذوقوا من طعمها سوى طعنة من قاتل جبان، يتلذذ بقتل أطفال دون ذنب منهم أو معصية.

فما أقدم فرعون على هذا السلوك المنحرف الجبان، الذي يخرج المرء فيه عن إنسانيته إلا بعد أن استحكم الفساد في هذه النفس فانحرفت عن السلوك القويم.

5. العمل بالسحر لتحقيق مآرب شريرة

قال تعالى:﴿**فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾(35)، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمسلم لا يعتدي على حرمات الآخرين، قال ﷺ: **[كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه]**(36)، والمسلم السوي لا يسعى لقهر الآخرين أو السيطرة عليهم بنفسه أو بغيره، ناهيك عن استخدام الوسائل الخفية أو الطرق الكفرية التي يقوم عليها السحر، قال تعالى في سياق الحديث عن السحر وعلاقة هاروت وماروت به: ﴿...**وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ** ...﴾(37)، وقد قرر القرآن الكريم أن السحر شر لا خير فيه، قال تعالى: ﴿...**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ** ...﴾(5).

لذا، فلا يلجأ إلى السحر ويتعلمه ويعمل به إلا صاحب نفس شريرة قد تجرد من كل معاني الخير وهذا هو عين الفساد وانحراف السلوك عن الصراط القويم.

6. مجافاة العمل الصالح

قال تعالى: ﴿**وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ**﴾(38)، يأتي الحديث في الآيات الكريمة عن المسرفين من قوم صالح، وهم كبراء القوم وأعلامهم في الكفر والإضلال ، وكانوا تسعة رهط، (يفسدون في الأرض)

(34) انظر: في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ ج5ص2677

(35) يونس: 81.

(36) صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة والأدب ـ باب تحريم ظلم المسلم ـ ج4ص1986 ـ حديث رقم(2564) .

(37) البقرة: 102 .

(38) الشعراء: 152

قيل: أرض ثمود، وقيل: في الأرض كلها، لامتناع الغيث بمعاصيهم، ولما كان قوله: **يفسدون** دلالته دلالة المطلق، أتى بقوله: **ولا يصلحون**، فنفى عنهم الصلاح، وهو نفي لمطلق الصلاح، فيلزم منه نفي الصلاح كائناً ما كان، فلا يحصل منهم صلاح البتة(39).

وهذا خلاف لما عليه حال الإنسان المسلم، فهو طيب وفعله للخير لا ينقطع، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : **[إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم حدثوني ما هي، قال:(أي ابن عمر) فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله فوقع في نفسي أنها النخلة ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله ؟ قال: هي النخلة]**(40)، قال العلماء في معنى الحديث أن مَثَلَ المسلم في دوام خيره ونفعه كمثل النخلة،

إذ يُنْتَفَعُ منها على مدار العام في كل جزء من أجزائها، وكذلك حال المسلم(41).

لكن من فسدت نفوسهم أصبحت لا تعرف للخير سبيلاً، ولا للإصلاح طريقاً، وما ذاك إلا أثر من آثار هذا الفساد.

7. الصد عن سبيل الله والسعي لإفساد المجتمع

قال تعالى على لسان شعيب وهو يخاطب قومه: ﴿**وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾(42)، يتناول سياق الآية الكريمة مدين إذ كانوا يقعدون في الطرقات المفضية إلى شعيب عليه السلام، يتوعدون من أراد المجيء إليه، ويقولون: إنه كذَّاب فلا تذهب إليه، كما كانت قريش تفعله مع النبي صلى الله عليه وسلم، قاله ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسديّ، وغيرهم، وقيل المراد: القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها، وليس المراد به القعود على الطرق حقيقة، ويؤيده قوله تعالى: (..وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله مَنْ ءامَنَ بِهِ...)(43).

(39) انظر البحر المحيط ــ أبو حيان الأندلسي ــ ج7ص34

(40) صحيح البخاري ــ كتاب العلم ــ باب طرح المسألة على الصحابة ليختبر ما عندهم ــ ص28 ــ حديث رقم (62).

(41) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري ــ البدر العيني ــ ج2ص20

(42) الأعراف: 86

(43) انظر: فتح القدير ــ الشوكاني ــ ج2 ص224

فالصد عن سبيل الله، وتوعد الصالحين من الناس، هو سلوك منحرف خارج عن منهج هذا الدين، وما انحرف سلوك القوم إلا نتيجة فساد نفوسهم، لذلك جاءت فاصلة الآية تدعو لأخذ العبرة من مصير المفسدين.

المسألة الثانية: الندم عند الموت

الموت حق على كل نفس قال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...**﴾(44)، وشتان بين مَنْ يختم عمله بخير فتتلقاه الملائكة بالبشرى، وبين مفسد تتخطفه الملائكة بالضرب على الوجه و الأدبار، وتنتزع روحه انتزاعاً، فيندم على ما فرط وما حمل من أوزار.

وقد وصف السياق القرآني الذي تحدث عن هذه القضية حال المفسدين لحظة موتهم وهم يستغيثون ويستنصرون ويعلنون الإيمان والتوبة، وهذه بعض مشاهد المفسدين لحظة احتضارهم كما بينها القرآن الكريم:

1. إعلان التوبة لحظة الموت

قال تعالى مخبراً عن حال فرعون عند موته: ﴿**...حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾(45)، فقد تناولت الآيات الكريمة الحديث عن فرعون في لحظة موته، حين لطمته الأمواج من كل مكان وعاين الموت ورأى أنه أقرب إليه من كل شيء، ورأى سيء عمله بين يديه، فأعلن إيمانه حين لا ينفع الإيمان، فقيل له آلآن تتوب وقد كنت من العصاة المفسدين في الأرض.

ويحسن هنا أن نذكر مقارنة لطيفة بين يونس بن متي عليه السلام، ذلك العبد الصالح الذي كان يذكر الله تعالى، وبين فرعون الذي كان عبدا طاغياً مفسداً ناسياً لذكر الله تعالى، فأما يونس لما وقع في بطن الحوت سأل الله عز وجل فكان الجواب: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾(46)، أما فرعون فلما أدركه الغرق قال آمنت، فكان الجواب ﴿**ءَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾(47) (48)،

---

(44) الأنبياء: 35

(45) يونس: 90، 91

(46) الأنبياء: 88

(47) يونس: 91

(48) انظر: زاد المسير– لابن الجوزي – ص636

فالمفسد يرى سوء عمله عند حتفه فيندم على ما أسرف في دنياه في وقت لا ينفع فيه ندم، أما المؤمن فيجد الله معه أينما كان.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿**وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾[49]

2 ــ تمني العودة للدنيا لعمل الصالحات

قال تعالى حكاية عن حال المفسدين ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[50]، ويأتي سياق الآيات في معرض الحديث عن فئة من الناس نَسَبَت لله الولد! وهل هناك أفسد عقيدة ممن نسب لله الولد؟ قال المفسرون: إن طلب العودة إلى الدنيا كان من هؤلاء المحتضرين عند النزع وذلك لهول ما يرون من سكرات الموت وصور أعمالهم القبيحة[51].

3- البشرى بالعذاب عند الموت

إن من أفسد الأعمال التقول على الله تعالى، لذلك وصف الله سبحانه وتعالى المفسدين المتقولين عليه، بقوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾[52]، قال الطبري و القرطبي: نزلت في حق مسيلمة الكذاب، وزاد القرطبي أنها أيضاً في حق كل من قال: بدا لي وأرى، تاركاً سنة النبيﷺ[53]، وهل هناك أفسد ممن كَذَبَ على الله فادعى النبوة، أو ترك سنة النبي ﷺ وعمل بهواه، وهذا المشهد ــ الذي يصور فيه الحق تبارك وتعالى حال

---

[49] النساء: 18

[50] المؤمنون: 99، 100

[51] انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ــ الطبري ــ م9ج18ص41.

[52] الأنعام: 93

[53] انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ــ الطبري ــ م5ج7ص183، انظر: الجامع لأحكام القرآن ــ القرطبي ــ ج7ص39.

المفسدين الذين عاثوا في الأرض وكذبوا على الله وصدوا عن سبيله ــ يظهر حالة الفزع والندم التي تعتري المفسدين عند معاينة الموت.

فمن الأمثلة السابقة نستطيع استنباط أن المفسدين إذا عاينوا الموت، رأوا صحائفهم السوداء على مد بصرهم، فيجزعون ويبادرون للتوبة تعبيراً عن ندمهم، ولكن بعد أن سبق عليهم الكتاب فلا تنفع توبة ولا ندم.

4- عذاب القبر

وقد جاء القرآن الكريم والسنة النبوية مؤكدين لعذاب القبر، أما القرآن الكريم فقوله تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾[54]، وأما السنة النبوية فقوله ﷺ **[إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع يقول اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال]**[55]، وقد تمثل عذاب المفسدين بالعرض على النار في الصباح والمساء كما بينت الآية الكريمة حال قوم فرعون، وهم مثل للفساد في الأرض.

المسألة الثالثة: سوء المصير يوم القيامة

توعد الله العصاة المفسدين في الأرض بالعذاب الشديد يوم القيامة، وقد ورد في القرآن الكريم صور شتى لألوان العذاب، والمصير الفاضح الذي ينتظر هؤلاء المفسدين الخارجين عن أمر الله تعالى، المحادِّين لرسله، وهذه بعض صور هذا العذاب الذي توعد الله تعالى به المفسدين:-

1- العذاب العظيم

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[56]، لقد عدد السياق القرآني أنواعاً متعددة لعقوبة المفسدين في الحياة الدنيا، وأجمل ما توعدهم به من العذاب يوم القيامة بقوله

---

(54) غافر:46

(55) صحيح مسلم ــ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ــ باب ما يستعاذ منه في الصلاة ــ ج1ص412ــ ح (588).

(56) المائدة: 33

تعالى: " (وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) أي: إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا، لهم في الآخرة مع الجزاء الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها، { عَذَابٌ عَظِيمٌ } يعني: عذاب جهنم"[57] وذلك يوم القيامة،

ويكفي رادعاً للإنسان أن يتوعده الحق بعذاب جهنم، فكيف إذا وصف هذا العذاب بالعظيم؟!

2. بغض الله للمفسدين

إن محبة الله للمؤمنين ووده لهم ورضوانه عليهم من أكبر النعم وأفضلها، قال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[58]، ولما كانت محبة الله ورضوانه أكبر نعمة، علم بمفهوم المخالفة أن بغضه وعدم محبته للعبد تعتبر من أشد العقوبات.

وقد أفصح الله عن بغضه للمفسدين، فقال: ﴿...**وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾[59]، وذلك يدل على أن الساعي في الأرض بالفساد ممقوت عند الله[60]

3. عدم مساواة المفسدين بالصالحين

لو أن الله عز وجل أدخل الناس جميعاً الجنة، لما شعر أهل الإيمان بتكريم الله لهم، ولو أدخل الناس جميعاً النار، لما أحس أهل الفساد والفجور بمقت الله، قال تعالى: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾[61] ومن العدل تفضيل الله المحسنين على المفسدين، فلا يستوي الخبيث والطيب، فبشر المؤمنين بالجنان والنعيم المقيم، قال تعالى: ﴿**يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ**﴾ [62]**، وتوعد المفسدين بألوان العذاب ـ الشديد**

---

(57) تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ ج3 ص123

(58) التوبة: 72

(59) المائدة: 64

(60) انظر: مفاتح الغيب ـ الفخر الرازي ـ ج 12ص45

(61) ص: 28

(62) التوبة: 21

والأليم والمقيم ــ ما تقشعر منه الأبدان، قال تعالى: ﴿...فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (63)

والمفاضلة بين المؤمنين والمفسدين في الآخرة فيها من العذاب والألم والوقع الشديد على نفوس المفسدين ما لا يعلمه إلا الله، فعندما يعلم المفسدون المتكبرون أنَّ المؤمنين الذين كانوا فقراءَ ومساكين ومستضعفين في الأرض يسرحون ويمرحون في الجنان والأنهار، ويتقلبون في رضوان الله تعالى، فإن هذا الأمر يقع على نفوس المفسدين كالصواعق المزلزلة المحرقة، فيزيدهم عذاباً نفسياً فوق العذاب الجسدي الذي يعذبونه، وكما هو معلوم فإن "العذاب النفساني أوقع على العاقل من العذاب الجسماني"(64).

4. المفسدون هم الخاسرون

توعد الله تعالى المفسدين بالخسران يوم القيامة، فقال في كتابه العزيز: **﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾**(65)، أي مغبونون بفوت المثوبة والمصير إلى العقوبة**(66)**، والناس يوم القيامة صنفان:

- صنف فائز، وهم الناجون من النار، قال تعالى: **﴿...فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ...﴾**(67)، وهم المؤمنون العاملون بطاعة الله في الحياة الدنيا.
- وصنف خاسر، وهم المفسدون، وقد أخبر الله عز وجل عن مصيرهم فقال: **﴿...إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ**

---

(63) الحج: 19-22

(64) التحرير والتنوير ــ ابن عاشور ــ ج14ص442.

(65) البقرة: 27

(66) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ــ الواحدي ــ ص97

(67) آل عمران: 185

الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(68)، فالمفسدون خسروا أنفسهم إذ أوردوها النار بفساد أعمالهم، وهم أيضاً قد خسروا أهليهم، فلم يجدوا لهم في النار أهلاً، وقد كان لهم في الدنيا أهل(69)، ولو وجدوا أهلا في النار فسيكون بعضَهم لبعض عدو ويلعنُ بعضُهم بعضاً ولا يزيدُهم اجتماعهم في النار إلا خسراناً وحسرة وندامة، قال تعالى: ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾(70).

ومن خسران المفسدين أيضاً يوم القيامة أنهم يحرمون منازل أعدت لهم في الجنة لو أنهم كانوا صالحين، جاء في حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً أن النبي ﷺ قال: [...فليس من نفس إلا و هي تنظر إلى بيت في الجنة أو بيت في النار قال: و هو يوم الحسرة قال: فيرى أهل النار البيت الذي في الجنة ثم يقال: لو عملتم! قال: فتأخذهم الحسرة...] (71).

5. الطرد من رحمة الله وسوء المصير

قال عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾(72) أي الطرد والإبعاد من الرحمة ولهم سوء المنقلب وهو جهنم(73).

ففي الآية الكريمة قضى الحق تبارك وتعالى بلعن المفسدين وطردهم من رحمته، ورحمة الله تعالى أرجى للعبد يوم القيامة من عمله مهما كان صالحاً، فما من أحد يدخل الجنة يوم القيامة إلا برحمة الله تعالى وفضله، قال ﷺ [لن يُنْجي أحداً منكم عملُه، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة...](74)، فرحمة الله تعالى هي حبل النجاة يوم القيامة، بها يدخل الناس الجنة، وبها يُرفَعُ أهل الجنة الدرجات، وبها يُكفِرُ الله

(68) الزمر: 15

(69) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ــ الطبري ــ م10ج23ص131

(70) الزخرف: 67

(71) المستدرك على الصحيحين ــ النيسابوري ــ ج4ص542 ــ حديث رقم(8519)، قال الإمام الذهبي صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(72) الرعد: 25

(73) انظر: الجامع لأحكام القرآن ــ القرطبي ــ ج 9ص267

(74) صحيح البخاري ــ كتاب الرقاق ــ باب القصد والمداومة على العمل ــ ص1314 ــ ح رقم (6463)

السيئات، وهي خير للعبد من عمله[75]، فمن حرمها يوم القيامة فهو المحروم، والشقي مَنْ طرد من رحمته عز وجل، وقد تكفل الله برحمته لمن آمن به وخافه واتقاه، قال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ**﴾[76].

أما المفسدون فنصيبهم يوم القيامة الطرد من رحمة الله، فلا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم.

6ـ الزيادة في العذاب

قال تعالى : ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ**﴾[77]، قيل المعنى زدنا قادة الفساد عذاباً فوق عذاب الأتباع، فأحد العذابين على كفرهم و الآخر عن الذين صدوهم[78].

المبحث الثاني

مظاهر الفساد وآثاره على الجماعة

وكما أن للفساد مظاهره وآثاره على المفسدين أنفسهم، فإن له مظاهر وآثاراً مدمرة في المجتمع، تمزق وحدته، وتذهب قوته، وتؤول به إلى مستقبل مظلم، فلا يُرتجى منه خير ولا يتوقع منه صلاح إلا باجتثاث أصول الفساد من هذا المجتمع وسد سبله.

ويمكن بيان مظاهر الفساد وآثارها على المجتمع سواء تعلقت بسفك الدماء، أو بقطع الأرحام، أو بانتشار الرذيلة، أو بفقد الأمن، أو بالفناء والاستئصال، وذلك للوقاية من خطر كل هذه الأمراض، وذلك فيما يلي :

المسألة الأولى : سفك الدماء

إن الإنسان خليفة الله في الأرض، وقد كرمه الله تعالى فقال: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا**

---

[75] انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ــ ابن حجر العسقلاني ــ ج11ص296

[76] الأعراف: 156

[77] النحل: 88

[78] انظر: الجامع لأحكام القرآن ــ القرطبي ــ ج10ص146.

تَفْضِيلًا﴾[79]، ومن تمام تكريم الله للإنسان أن توعد من هدمه بغير حق، فقال: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾[80]، إنه وعيد شديد، ما توعد الله بمثله على معصية قط، فالخلد في النار، وغضب الله، والطرد من رحمته، والعذاب العظيم لمن هدم هذا البنيان.

ولا يشيع القتل وسفك الدماء في مجتمع من المجتمعات، إلا إذا بلغ هذا المجتمع حداً من الفساد والجرأة على حدود الله تؤهله لفعل ذلك، بمعنى أن سفك الدماء نتيجة متوقعة للفساد، فساد الفطرة، وفساد في معرفة معنى الحياة، وفساد في التصور، وفساد في الخُلُق، وفساد في السلوك، وفساد في الروابط والمعاملات، وفساد في كل ما بين الناس من ارتباطات[81]، فالمجتمع الذي يشيع فيه الفسادُ، لا تُراعى فيه حرمة لمال ولا عرض ولا دم، فإذا تدنت الأمة إلى هذه الدرجة الوضيعة من الفساد هان على أفرادها الاعتداء على كل شيء.

وقد قرنت الملائكة الكرام بين الفساد وسفك الدماء، قال تعالى على لسانهم: ﴿...**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**...﴾[82]، ولعل هذا من قبيل عطف الخاص على العام ــ وذلك لبيان أشنع ما سيكون عليه هذا الفساد، فقد خَصَّتِ الملائكةُ سفكَ الدماءِ وهو من خصوص الفساد وذلك لبيان شناعته، وأن سفك الدماء أعلى درجاته، وما كان لإنسان أن يقترفه إلا إذا بلغ حداً من المغالاة في الفساد.

وقد اعتبر الزمخشري "الفساد في الأرض تهييج الحروب والفتن"[83]، ثم ذكر قوله تعالى: ﴿...**لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ**...﴾[84]، وقوله تعالى: ﴿...**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ**...﴾[85]، فالفتن والحروب سميت فساداً لكثرة ما يسفك فيها من دماء، والحروب نتيجة مترتبة عن فساد العلاقة بين أفراد المجتمع أو الجماعات البشرية،

---

[79] الإسراء: 70

[80] النساء: 93

[81] انظر: في ظلال القرآن ــ سيد قطب ــ ج1ص437

[82] البقرة: 30

[83] انظر: الكشاف ــ الزمخشري ــ ج1ص179

[84] البقرة: 205

[85] البقرة: 30

لذا نرى أن سفك الدماء نتيجة طبيعية لحالة الفساد التي يصل إليها الناس أفراداً وجماعات.

المسألة الثانية : قطع الأرحام

ومن الآثار التي تنشأ عن الفساد في الأمم و المجتمعات، قطع العلاقات والصلات بين أفرادها، فالأصل في الإنسان أنه مخلوق اجتماعي بطبعه وفطرته التي فطره الله عليها قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...**﴾[86]، والسكن هو الطمأنينة والإيناس والراحة النفسية[87]، وقد أمر الشارع الحكيم بصلة ذوي القربى، فقال: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى...**﴾[88]، كما أوصى بصلة الرحم فقال: ﴿**...وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾[89]، ولكن عندما تنحرف الأمة عن منهج ربها ويفسد حالها، تتحلل من روابط الخير وعُرَى الإيمان، وتتخلى عن صلة الأرحام، هذه الرابطة العظيمة التي رفع الله شأنها، وتكفل بوَصلِ من وصلها وقطع من قطعها كما جاء في الحديث القدسي: **[يقول قال الله عز وجل : أنا الرحمن وأنا خلقت الرحم واشتققت لها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته]**[90]، وقد قرن الله تبارك وتعالى بين الفساد وقطع الأرحام في قوله: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾[91]، أي أن تعودوا إلى سالف عهدكم من الكفر و الفساد في الأرض وقطيعة الرحم[92]، فإن هذا يشعر بالتلازم بين الفساد وقطع الأرحام، فبعضها يفضي إلى بعض، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[93]، وقوله: ﴿**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ**

(86) الروم: 21

(87) انظر: في ظلال القرآن ـــ سيد قطب ـــ ج5ص2763

(88) النساء: 36

(89) النساء: 1

(90) مسند الإمام أحمد ـــ ج1ص194، قال عنه شعيب الأرنؤوط صحيح لغيره.

(91) محمد: 22

(92) انظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ـــ الواحدي ـــ ج2ص1003

(93) البقرة: 27

اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[94]، ففي كلا الموضعين يبين السياق القرآني أن من جملة ما أمر الله به أن يوصل الأرحام[95]، وقطعها مقترن بالفساد كما يصف السياق القرآني في هذه الآيات الثلاث[96].

وقد جاء في السنة ما يؤكد ذلك حيث روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **[خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو[97] الرحمن فقال له مه، قالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذاك. قال أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[98]]** [99].

ومن هنا كان قطع العلاقات الطيبة بين أبناء المجتمع، وفي مقدمتها قطع الأرحام، لهو دليل على حالة الفساد التي وصل إليها الناس في هذا المجتمع.

المسألة الثالثة : انتشار الرذيلة

الرذيلة: ضد الفضيلة وهي الرديء من كل شيء[100]، في الماديات والمعنويات، والسلوك والأخلاق.

ونقصد بانتشار الرذيلة، ترك الأمة للفضائل وتلبسها بكل ما هو رديء وباطل يوقعها في سخط الله، سواءٌ أكانت هذه الرذيلة فعلاً أم قولاً أم خلقاً.

والأصل في الأمة الإسلامية أنها خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[101]، **وقد جعل الله**

---

(94) الرعد:25

(95) انظر: زهرة التفاسير ــ محمد أبوزهرة ــ ج1ص183

(96) (المفسدون في الأرض ــ جمال بواطنة) انظر: مجلة الإسراء ــ عدد 52 ــ إبريل /2004ــ ص15.

(97) الحقو: هو الخصر وموضع شد الإزار وهو الموضع الذي جرت عادة العرب بالاستجارة به لأنه من أحق ما يدافع عنه، كما قالوا نمنعه مما نمنع منه أزرنا فاستعير ذلك مجازا للرحم في استعاذتها بالله من القطيعة. انظر: فتح الباري ــ ابن حجر ــ ج8ص580

(98) محمد: 22

(99) صحيح البخاري ــ كتاب التفسير، باب تفسير سورة محمد ــ ص1023

(100) انظر: لسان العرب ــ ابن منظور ــ ج11ص280

(101) آل عمران: 110

هذه الخيرية مقترنة بصلاحها القائم على الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه الركائز الثلاث هي سر خيرية الأمة، فمتى تخلت الأمة عن هذه الركائز فسد حالها وحلت الرذيلة مكان الفضيلة ونضرب ثلاثة أمثلة من صور الرذيلة التي ذكرها القرآن الكريم في معرض الحديث عن المفسدين وهي كما يلي:-

1. السرقة

قال تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام ﴿**قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ**﴾[102]، فإخوة يوسف ﷺ في هذا المشهد من القصة يقسمون على براءتهم، و نزاهة جانبهم، وطهارة ذيلهم، عن التلوث بقذر الفساد في الأرض، الذي هو رذيلة ونقيصة، تعتبر السرقة من أعظم أنواعها[103] وهي لا تليق بهم.

2. بخس الميزان

قال تعالى على لسان شعيب وهو يسدي النصيحة لقومه: ﴿**أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾[104]، فالتلاعب في الموازين بالتطفيف وبخس الناس حقوقها كل ذلك من أشكال السرقة و الخيانة، وهي رذيلة لا تتفشى وتنتشر إلا في مجتمع فسدت قيمه الأخلاقية[105].

3. الشذوذ الجنسي وقطع الطرق

من الرذائل التي تشيع في المجتمعات المفسدة فاحشة اللواط وقطع الطريق والتعرض للناس في أسفارهم لأجل الفاحشة، وكانوا يجاهرون في فعل المنكرات، قال تعالى على لسان لوط وهو يجادل قومه: ﴿**أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ**﴾[4]، والدليل على أن هذه الرذائل كانت قد تفشت في القوم حتى غدت خلقاً من أخلاقهم، أن لوطاً ﷺ قال لهم: ﴿**...وَتَأْتُونَ فِي**

---

(102) يوسف: 73

(103) انظر: فتح القدير ــ الشوكاني ــ ج3ص43

(104) هود: 85

(105) (المفسدون في الأرض ــ جمال بواطنة) انظر: مجلة الإسراء ــ عدد 52 ــ إبريل /2004ــ ص17

نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ...﴾ فهم يفعلون الفاحشة في ناديهم[106] ومجالسهم[107]، فهل بعد ذلك من رذيله.

المسألة الرابعة : فقد الأمن

بين الله عز وجل أن الأمة التي تنعم بالأمن هي تلك الأمة التي عاشت الإيمان واقعاً في حياتها، خالياً من الإشراك بالله، قال تعالى: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾**[108].

فإذا ما تفشت المظاهر التي ذكرناها في المسائل الثلاث، فسفكت الدماء وقُطِّعت الأرحام، وانتشرت الرذيلة وقُطِعَتْ الطريق واستبيحت الأموال ونُقِضت العهود والمواثيق، ذهب الأمن وحل الخوف والرعب، وأصبح الناس غير آمنين في إقامتهم وأسفارهم، فإن أصبح هذا واقع الأمة، فماذا بقي لها من معاني الحياة الكريمة الآمنة؟ وقد تناول السياق القرآني بعضاً من هذه المعاني التي تدلل على أن للمفسدين دوراً في ضياع الأمن وترويع الناس، وذلك من خلال بعض الممارسات نذكر منها ما يلي:

1. إشعال الحروب

إن أشد لحظات فقدان الأمن وظهور الخوف في المجتمعات هو زمن الحروب، والمفسدون من وراء هذه الحروب والويلات التي تشتعل بين الأمم والشعوب، قال تعالى في حق بني إسرائيل: **﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾**[109]، فأشنع ما عليه حال المفسدين إشعال الحروب وترويع الآمنين.

2. ترويع ابن السبيل

﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[110]، جاء في

---

(106) يسمى مكان اجتماع القوم نادياً إذا كان ممتلئاً بأهله. انظر: لسان العرب – ابن منظور – ج15ص313

(107) انظر: الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج13ص303

(108) الأنعام: 82

(109) المائدة: 64

(110) الأعراف: 86

التفاسير أن إحدى إفسادات مدين تمثلت بقطع الطريق، وترويع الناس في أسفارهم إذ كانوا يأخذون من أموال الناس العشر عنوة ويتوعدونهم بالقتل، كما كانوا يتوعدون ويخوفون من جاء من الناس قاصداً الإيمان مع شعيب(111).

مما سبق يتبين أن للمفسدين دوراً كبيراً في سلب البلاد نعمة الأمن، وإشاعة الخوف بين الناس في حلهم وترحالهم.

المسألة الخامسة : الفناء والاستئصال

تقضي الأمم وتموت كما يقضي الناس ويموتون فلا يبقى منها إلا الأثر، قال تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾(112)، وقال: ﴿**وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ**﴾(113).

وإن بقاء الأمم وتعميرها أمر نسبي مرتبط بصلاح الأمة وفسادها، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾(114)، جاء في بعض أقوال المفسرين أن المقصود بالأرض: الحياة الدنيا، وأن المقصود بالوراثة هو النصر والتمكين(115)، فالأمة لا تزال يمكن لها في الأرض ما دامت تحافظ على صلاحها. وقال تعالى: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً**﴾(116)، فالآيات تبين أن دمار ممالك بني إسرائيل إنما كان بسبب فسادهم في الأرض، ثم عقب على دمارهم بعد الإفسادتين بقوله: ﴿**وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا**

---

(111) انظر: الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ـ ج7ص222، انظر: روح المعاني ـ محمود الألوسي م3ج8ص178

(112) الأعراف: 34

(113) الحجر: 4، 5

(114) الأنبياء: 105

(115) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ الطبري ـ م9ج17ص82، تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ ج5ص394

(116) الإسراء: 4، 5

وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾[117]، أي إن عدتم للفساد عدنا لتدميركم واستذلالكم وسبيكم[118].

وقد جاء في السياق القرآني الكريم العديد من الآيات التي تبين هلاك الأمم بسبب فساد أهلها وكثرة معاصيهم، وهذه طائفة منها:ـ

1. **﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾**[119]
2. **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[120].
3. ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ* فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾[121].

المبحث الثالث

آثار الفساد الواقعة على الكون

عرفنا أن للكون نظاماً متناسقاً يقوم على الحق والعدل والاستقامة، فإذا اختلت مقومات هذا النظام الكوني، وأصبح الفساد هو المظهر العام في الكون، فلا شك أنه ستظهر آثار مهلكة وكوارث ودمار واختلال، متمثلة في عدة مسائل، سنعرض لها مع صورها ونماذجها، لبيان خطرها وللحذر منها، وذلك فيما يلي:

المسألة الأولى : القحط و الجفاف

إن لمعاصي الإنسان وفساده آثاراً على الكون من حوله، فإذا ما أحسن الإنسان وأصلح في الأرض، فإن السماء تُنْزِلُ من بركاتها، والأرضَ تُخْرِجُ من خيراتها، ويعيش الناس في رغد من العيش وسعة، قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[122].

---

(117) الإسراء: 8

(118) انظر: تفسير القرآن العظيم ــ ابن كثير ــ ج5ص49

(119) النحل: 45

(120) الأعراف: 96

(121) الفجر: 10- 13

(122) الأعراف: 96

وعندما يعمل الناس بمعصية الله تعالى ويفسدون في الأرض، فإن السماء تمسك خيراتها، والأرض تحبس بركاتها، فتفسد البلاد ويسوء حال الإنسان والنبات والدواب، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[123]، وقد بين المفسرون أن المقصود بالفساد في الآية: الجدب الذي يسود في البر: وهي المدن والمزارع البعيدة عن شواطئ البحار، والبحر: هي المدن التي على سواحل البحار وضفاف الأنهار، وذلك بسبب معصية الناس لربهم، فمعصية الله تعالى يترتب عليها حبس المطر وانقطاع الرحمة[124]، وانحباس الماء آفة لو استمرت لهلك الزرع وجف الضرع وانتهت الحياة، لأن الماء عنصر الحياة، قال تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[125].

وقد جاء في السنة المطهرة ما يؤكد أن فساد الناس سبب للقحط وقلة الغيث، إذ أخرج الحاكم في المستدرك من حديث بريدة الأسلمي مرفوعاً **[...ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر]**[126]، ومنع الزكاة صورة من صور الفساد المتمثل في الخروج عن أمر الله.

المسألة الثانية : الكوارث و الدمار

الكوارث جمع كارثة، وهي: الشدائد الشاقة التي تَغُم[127]، والدمار: الهلاك والدخول بغير إذن لفعل ما يُكْرَه[128].

ونقصد بالكوارث والدمار: الأحوال الطبيعية من زلازل وغيرها التي تحدث على الأرض فتدمر القرى وتلحق بالناس القتل والتشريد.

والأصل أن الأرض مذللة ممهدة مستقرة يسهل العيش عليها بأمن وسلام، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ

---

(123) الروم: 41

(124) انظر: تفسير القرآن العظيم ــ ابن كثير ــ ج6ص336، انظر: الجامع لأحكام القرآن ــ القرطبي ــ ج14ص38

(125) الأنبياء: 30

(126) المستدرك على الصحيحين ــ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ــ ج2ص136ــ حديث رقم(2576)، وقد صححه الامام الذهبي في التعليق وقال: صحيح على شرط مسلم.

(127) انظر: لسان العرب ــ ابن منظور ــ ج2ص180

(128) انظر: لسان العرب ــ ابن منظور ــ ج4ص291

النُّشُورُ﴾[129]، وقال ﴿**وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ**﴾[130]، ولكن عند فساد الناس والمبالغة في العصيان، تخرج الأرض عن هذه الخاصية فتحدث الكوارث والويلات.

والمتدبر في كتاب الله عز وجل يقف على كثير من الآيات الكريمة التي يبين الله تعالى فيها مهالك الأمم السابقة التي أفسدت في الأرض فأضحت معالم قراهم آية على مدار الزمان، ليتعظ الناس ويعلموا أن عاقبة الفساد كوارث ودمار، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾[131]،

وهذه صور من الكوارث والدمار الذي عوقبت به أمم أفسدت في الأرض وهي فيما يلي:ـ

1. **الخسف**، لما نصح القوم قارون، وحضوه على فعل الخيرات، وترك الفساد في الأرض، حيث أخبر الله عن ذلك فقال: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾[132]، فلما أبى إلا الفساد أُخذ بعقوبة الخسف، قال تعالى:﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ**﴾[133]، فهذه الأرض المذللة الممهدة المفروشة ذات الجبال الرواسي تَخْسِفُ بالمفسدين عقوبة من الله.
2. **الطوفان**، الماء عنصر الحياة وهو غيث السماء، ورحمة الله لأهل الأرض، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾[134]، ولكن هذا الماء يتحول إلى نقمة من الله على القوم المفسدين، كما أخبر الله تعالى عن قوم نوح، إذ أرسله الله إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة لما

---

[129] الملك: 15
[130] الذاريات: 48
[131] الصافات: 133 ـ 138
[132] القصص: 77
[133] القصص: 81
[134] الشورى: 28

يئس من إيمانهم دعا عليهم فأخذهم الطوفان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾[135].

3. **عذاب الظلة**، والسحابةُ في يوم الحر تأتي رحمة للناس يستظلون بظلها، فترطب أبدانهم وتروح عن نفوسهم، ولكنها على المفسدين نيران تحيلهم جثثاً لا حـراك لهم، ومدين: القوم الذين أفسدوا في الأرض وقطعوا الطريق وصدوا عن سبيله، أرسل الله إليهم سحابة في يوم حر شديد، فلما هرع القوم ليستظلوا بظلها، قلبها الله عليهم نيراناً[136] فأهلكتهم وجعلتهم أجساداً هامدة، قـال تعـالى: ﴿**فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[137] [138].

المسألة الثالثة : اختلال نظام الكون

إن الله عز وجل قد خلق الكون وجعل له نظاماً وقانوناً يضبط عناصره وأجـزاءه، قال تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾[139]، وقال: ﴿**... صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ...**﴾[140]، والكون كل الكون يخضع لله تعالى ولا يحيد عن أمره ويسجد له ويعظـم أمره، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾[141]، فكل ما في الوجود يسجد ويعظم أمر الله، ولا يخالف أمره أو يخرج عن هذا النظام إلا المفسدون من عُصاة الإنس والجن، والمفسدون عندما يخرجون عن أمر الله ويعصون رسله إنما يفعلون اتباعاً للهوى، وقد ذم

---

[135] العنكبوت: 14

[136] انظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ــ الواحدي ــ ج2ص796

[137] الشعراء: 189

[138] ولعل هذه الأحداث الكونية كالزلازل التي تدك الأرض والطوفان البحري "تسونامي" ــ وهـو كلمـة يابانية تعني أمواج الموانئ العاتية، وقد ضرب بلاد جنوب شرق آسيا بتاريخ 2004/12/26م واحـداً منها فدمر مدن بأكملها وقتل مايزيد على مائتي ألف نسمة. انظر: مجلة المهندس الفلسطيني ــ العدد 50 حزيران 2005م ص56ــ لهو دليل على سنة الله التي لا تتغير في الظالمين، فهل يتعظ الناس فيصلحوا علاقتهم بربهم عز وجل؟!

[139] القمر: 49

[140] النمل: 88

[141] الحج: 18

الله من اتبع هواه، وجعل اتباع الهوى سبباً لفساد السماوات والأرض واختلال النظام الكوني، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ...**﴾(142)، وقد ذكر الإمام الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة وجوهاً منها: "إن أهواءهم في عبادة الأوثان وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وهما أساس المفسدة، والحق هو الإسلام، فلو اتبع الإسلام قولهم لعلم الله حصول المفاسد عند بقاء هذا العالم، وذلك يقتضي تخريب العالم وإفناءه، ... إن آراءهم كانت متناقضة فلو اتبع الحق أهواءهم لوقع التناقض ولاختل نظام العالم"(143).

وقد جاء في السنة الصحيحة أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الناس، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **[لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس]**(144)، وهل شرار الناس إلا المفسدون؟! فإذا عم الفساد وسَادَ أوساط العباد، ولم يعد للمصلحين وجود، فإن ذلك نذير خطر يؤذن بفناء الكون، واضطراب نظامه، وقيام الساعة، فأي خطر يمكن أن تواجهه البشرية أعظم من ذلك.

وخلاصة القول: إن ما يحل بالناس من كوارث ودمار في كافة نواحي الحياة هو نتيجة لفساد الناس وعصيانهم لأمر ربهم قال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾(145)، فقد فسدت أسباب دنياهم ومحقت، ليذيقهم الله بعض الذي عملوا في الحياة قبل الممات(146).

الخاتمة

الحمد لله الذي طهَّر المؤمنين من الفساد وآثاره، وأنعم عليهم بصلاح أمرهم عاجله وآجله، وقد أتم الله علينا نعمته بتمام هذه الدراسة التي كانت أهم نتائجها كما يلي:

أولاً: هذه دراسة تطبيقية للون من التفسير الموضوعي، وهو الموضوع القرآني.

(142) المؤمنون: 71

(143) التفسير الكبير – فخر الدين الرازي – ج23ص112

(144) صحيح مسلم – كتاب الفتن وأشراط الساعة – باب قرب الساعة – ج4ص2268 – حديث رقم(2949)

(145) الشورى: 30

(146) انظر الكشاف – الزمخشري – ج3ص224

ثانياً: إن الكون والحياة سنة إلهية قائمة على الحق والعدل والصلاح، فإن الظلم والفساد فلا شك أنه سيختل نظام الكون والحياة.

ثالثاً: إن منهج الإسلام هو إطار الحق والعدل والاستقامة، فالخروج عنه هو الفساد في الأرض، وشقاء الإنسان في عاجله وآجله.

رابعاً: إن حقيقة الفساد هو كل ما خرج عن حالة الصلاح والاعتدال التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية.

خامساً: إن انحراف السلوك لدى الأفراد هو مظهر من مظاهر الفساد، ويتمثل هذا الانحراف في الاعتداد بالنفس وادعاء الصلاح، وانحراف الفطرة الجنسية لديهم، وانحراف في أدب العبودية لله تعالي، وإسراف في القتل واستباحة الحرمات، وعمل بالسحر لتحقيق مآرب شريرة، مع مجافاة العمل الصالح، والصد عن سبيل الله، والسعي لإفساد المجتمع بأسره.

سادساً: إن الندم عند الموت هو أثر طبيعي لفساد الأفراد، ويتمثل هذا الندم في إعلان التوبة لحظة الموت، وتمني العودة للدنيا لعمل الصالحات، مع البشرى بالعذاب عند الموت، وما يتبعه من عذاب القبر.

سابعاً: إن سوء المصير هو أثر آخر من آثار فساد الأفراد، ويتمثل هذا المصير السيء بالعذاب الأليم، وبغض الله للمفسدين، وعدم مساواتهم بالصالحين، بل هم الخاسرون المعذبون المطرودون من رحمة الله تعالي.

ثامناً: إن من مظاهر الفساد وآثاره على الأمة والمجتمع أن تُسفك الدماء، وتُقطع الأرحام، وتنتشر الرذيلة، ويُفقد الأمن، ويقع الفناء والاستئصال للأمة بأكملها.

تاسعاً: إن من مظاهر الفساد وآثاره على الكون عموم القحط والجفاف، وتكثر الكوارث والدمار بالزلزال والخسف والطوفان وعذاب الظلة، وغير ذلك مما يترتب عليه اختلال نظام الكون كله.

عاشراً: إن سبيل الخلاص من هذه المظاهر والآثار المدمرة المهلكة للأفراد والأمة والكون هو ترك سبيل الفساد والسير في سبيل الخير والسداد والرشاد.

والله الهادي إلى سواء السبيل

فهرس المراجع

1. تاج العروس من جواهر القاموس ــ محمد مرتضى الزبيدي ــ بيروت ــ دار مكتبة الحياة ــ دون تاريخ.
2. التحرير والتنوير – محمد الطاهر ابن عاشور– دار سحنون للنشر والتوزيــع – تونس –1977م.
3. تفسير البحر المحيط ــ أبوحيان محمد بن يوسف الأندلسي ــ بيروت دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع ــ 2001م.
4. تفسير القرآن الكريم العظيم – إسماعيل بن عمر بن كثير الدمــشقي – تحقيــق السيد محمد السيد – دار الحديث – القاهرة – 2002م.
5. التفسير الكبير – فخر الدين الرازي – الطبعة الثانية – طهــران – دار الكتــب العلمية – بدون تاريخ.
6. جامع البيان في تأويل آي القرآن – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتــوفي 310هـــ – الطبعة الثالثة – دار المعرفة - بيروت – 1978م.
7. الجامع لأحكام القرآن – أبو عبد الله محمد بن أحمــد القرطبــي – دار الكتــاب العربي للطباعة والنشر – القاهرة – 1967م.
8. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – محمود الألوســي– دار الفكر – بيروت – 1978م.
9. زاد المسير في علم التفسير – أبو الفرج عبد الرحمن بن على ابــن الجــوزي– المكتب الإسلامي – بيروت – 2002م.
10. زهرة التفاسير – الشيخ محمد أبو زهرة – القاهرة – دار الفكر العربــي – دون تاريخ.
11. صحيح البخاري – محمد بن إسماعيل البخاري – تحقيق طــه عبــد الــرؤوف سعد– مكتبة الإيمان – المنصورة – 2003م.
12. صحيح مسلم – أبو الحسين مسلم بن الحجاج – دار إحيــاء الكتــب العربيــة – القاهرة – دون تاريخ.

13. عمدة القارئ شرح صحيح البخاري – بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني– دار صادر – بيروت – 2002م.
14. فتح الباري شرح صحيح البخاري – أحمد بن على بن حجر العسقلاني دار المعرفة – بيروت 1379هـ.
15. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير – محمد بن على الشوكاني – دار الفكر – بيروت – 1983م.
16. في ظلال القرآن – سيد قطب – الطبعة العاشرة– دار الشروق – القاهرة – 1981م.
17. القاموس المحيط ــ الفيروز أبادي بيروت العربية للطباعة والنشر ــ دون تاريخ.
18. كتاب توحيد الخالق ــ عبد المجيد الزنداني ــ دار السلام للطباعة والنشر ــ جدة ــ 1985م.
19. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – أبو القاسم محمد بن عمر الزمخشري– دار المعرفة – بيروت – دون تاريخ.
20. لسان العرب – محمد بن مكرم بن منظور– دار صادر – بيروت – دون تاريخ.
21. مجلة الإسراء – – تصدر عن مديرية الإعلام والبحوث بدار الفتوى بالقدس – العدد (52) – إبريل – 2004م.
22. مجلة المهندس الفلسطيني – تصدر عن نقابة المهندسين– العدد (50) – حزيران – القدس – فلسطين– 2005م.
23. مختار الصحاح ــ محمد بن أبي بكر الرازي ــ دار القلم ــ بيروت ــ دون تاريخ.
24. المستدرك على الصحيحين – أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري– دار الكتب العلمية – بيروت – 2002م.
25. مسند الإمام أحمد بن حنبل – أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني– دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع –بيروت– دون تاريخ.

26.معجم مقاييس اللغة ــ ابن فارس ــ الطبعة الثانيــة ــ بيــروت ــ دار الفكــر للطباعة والنشر – 1998م.
27.مفردات ألفاظ القرآن ــ أبو القاسم الحسين بن محمــد بــن المفــضل الراغــب الأصفهاني ــ تحقيق صفوان عدنان داودي ــ الطبعة الثانية ــ دمــشق ــ دار القلم،2002م.
28. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – على بن أحمد الواحدي – دار القلم – دمشق – 1995م.